الفصل الثالث

التحدي الإعجازي للإسلام منهجيًّا في هذا العصر

obeikandl.com

obeikandl.com

التحدى الإعجازى للإسلام
منهجياً فى هذا العصر

والتحدى الإعجازى للإسلام فى هذا العصر إلى حد يمكن استئناس المسيرة المنهجية فى طرحه ؟ ما هى الحدود والإمكانات ؟

إن خير ما نقلع منه لعرض هذا الموضوع ونستنير به كمعيار هو قول الحق سبحانه« **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** » (١) . فمن لديه كتاب منير أو هدى من ربه ليس فى حاجة لمن يتجاوز به التحدى . فهو قد تجاوزه بنور كتاب الإيمان المنير وهدى الله الذى امتلأ به قلبه . وبقى الجدال فى حضور العلم أو المجادلة فى غيبته . المجادلة بغير علم غير مطروحة كالجدال فى غيبته ، ومن باب أولى دون هدى أو كتاب منير . لأن هذا جدال الضلال . مصداقاً لقول الحق سبحانه « **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله** »(٢) ...قد يكون شيطاناً يوسوس له فى صدره المتعلق بالدنيا ، والمتغافل عن الآخرة، أو شيطان من الإنس يلقى عليه بأطروحات مغشوشة ، منمقة ومفتعلة يستهويه بها بعد أن ضل هو ، ويريد أن يوسّع به موكب ودائرة الضالين .

فهذا الذى يجادل دون إحترام لأبسط الأسس العلمية . بل ويتنكر لها مشيَطناً أو مشيِطناً. جاهلا أو متجاهلا لخصائص

---

(١) الحج : ٨ .

(١) الحج ٣،٤ .

obeikandi.com

الحوار والمواجهة الموضوعية ليس هدفنا من هذا العرض إقناعه ، بل إن الله سبحانه وتعالى طلب منا الإعراض عنه ، لأنه زاغ وأضاع زمنه ويبحث عن إضاعة أزمنة الآخرين بعد أن زين له الشيطان حب الدنيا وأزان له أفعاله فيها . يقول الحق سبحانه « **فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم** ».(١) مبلغ العلم الذى يريد به إشباع شهواته ونزواته والتلهى بحياته ، دون فكر أو تفكير أو تسامى مثله كمثل أى حيوان يبحث غرائزياً عن كل إشباع ، يفترس أقرب الحيوانات إليه ولو كانت أمه التى أرضعته ، فهذا الحيوان المقنع أو المستتر فى هيئة إنسان ، التحدى كما أشرنا سلفاً غير وارد بالنسبة له أيضاً . بل لا نملك إلا التأسى عليه والحزن على دونية المصير الذى ارتضاه لنفسه . . .

بقى الحوار بهدف التحدى الإعجازى فى حضور العلم المستنير المشرق ، إن كان هذا التحدى الإعجازى للإسلام انتصر فى عصره الأول من خلال معركة المواجهة المطروحة لعلم العصر آنذاك ، ونعنى البيان وإعجازه كمعرفة رائدة كريادة المعرفة التنكولوجية فى عصرنا اليوم . المعرفة البيانية عند العرب تجاوزها القرآن فى فترة النبوة وفى كل العصور بفضل ما جاء به من بيان خارق معجز خالد . ثم جاءت مرحلة تحدى آخر ممثلا فى العقلانية

---

(١) النجم : ٢٩ ، ٣٠

والبرهان الفلسفى بعد أن تعامل العرب مع الفكر الإغريقى . وواجه الإسلام وحاور بعقول نيرة أصولية سلفية كانت تحتكم للشرع والنص ولا تقبل التأويل أم تنتمى لدراية العقل مع أولوية النص إنطلاقاً من عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) حتى مدرسة الكوفة مع أبى حنيفة النعمان وما حوله ، أم كانت كنديه أم أشعرية أم ماتريدية ، مطعمة بالاعتزال . أم معتزلة . أم إخوان الصفا بما فى ذلك فلاسفة التعامل الإغريقى معه أو عليه من الفارابى لابن سينا إلى الغزالى والرازى وابن رشد . . .

مواجهات الكلاميين بجدالهم البناء ، والفلاسفة ببرهانهم الناصع ، إلى جانب أهل الخطاب وقناعتهم العاطفية الروحية الصوفية .

لم ينهزم الإسلام المتحدى المحاور بمبادئه الرصينة الخالدة وعقول رجاله ، بل عبر التاريخ قادراً معجزاً ومنتصراً رغم كل الطعنات المقنعة ، ومواكب الكيد ، ودس الدخلاء . وارتفع عدد المؤمنين المستضعفين من مئات وآلاف فى العصر النبوى ليصبح ملايين تقترب من المليار منتشرة فى كل بقاع الأرض تواجه ظلم الإنسان ، وحيل المزيفين . ومضاربة سماسرة التشكيك ، ممن حاولوا تجسيد حال الإسلام فى حال المسلمين ، وفشلت المكائد وعريت كل الحيل وكشفت كل أنواع المضاربات ووصل الإسلام إلينا عملاقاً يضمد جراحه وجراح أبنائه ومعتنقيه .

وواجه سيف الغرب الصليبى ممثلا فى الاستعمار ، وتقبل جسده

من جديد كل الضربات والطعنات بعد مآسى العصور الوسيطة وضياع الأندلس . وقد اختلفت مواكب الاستعمار فى الكثير . ولكنها كانت ضمنياً متفقة فيما بينها على خنقه وقبره . . .

وتجاوز الإسلام سيف الاستعمار الصليبى والاستغلالى ، ليواجه فى القرن العشرين عقله الحضارى الغربى المدعم بالأسس العلمية والمعرفة التكنولوجية والإنجاز الصناعى الخلاق . ولم تتوقف بالتالى مواكب التحدى . . .

فبعد التحدى البيانى . والتحدى العقلانى جاء التحدى الأكبر ممثلا فى مآلية البيان والعقلانية الفلسفية النشطة ليتجسد فى العلم المرتكز على قدرة المنهج والمدعم بالتجريب والملاحظة . وها هو الإسلام وقد اقتربنا من نهاية القرن العشرين وبعد أن دخل فى قرنه الخامس عشر يستنفر قدرات عقول أبنائه لا ليجد مهرباً من التحدى يسلكه . وإنما ليواجهه وليتجاوزه كما تجاوزه من قبل بإعجازه . ولكن كيف ؟ هذا ما سوف نحاول طرحه لا من منطلق الفضول أو المجازفة المتهورة . وإنما من قناعة التكوين الصارم فى العلوم الوضعية وفى الإسلاميات على حد سواء . وهذا ما يجعلنا ومنذ البداية نخط الحدود بوضوح . وهى أننا نستبعد الأطروحات المغشوشة أو المتعجلة وهى أطروحات ما نسميها « بالإحلال أو التبرير » والتى تسعى إلى إحلال العلم محل الدين أو العكس ـ إحلال الدين محل العلم ـ أو تبرير العلم بالدين أو تبرير الدين بالعلم الدنيوى

النسبي والمحدود دون وعي بتسامي الدين في كماله وشموله من منطلقه وعبر مسيرته وغائيته الخالدة ، عن العلم بجزئياته ومرحليته بين التخطيء والتصويب . فإن كان ولابد من تبرير فالعلم هو الذي يبحث عن سند وتبرير له من جانب الدين ليميز بين علم بناء للإنسانية وعلم مدمر لها . . .

إنما الذي نسعى إليه هو المواجهة والحوار بهدف التحدي مواجهة ما حققه العلم بعد أربعة عشر قرناً من ظهور الإسلام لنكتشف معه من خلال إكتشافاته وخطواته المتجددة هل فيها ما يخالف نص القرآن ؟ هل استطاعت مسيرة العلم بعد أربعة عشر قرناً أن تسجل ولو إصابة واحدة تنال من مرمى قرآننا الخالد . وهو الذي نحتكم به كما كان شأننا دائماً إلى جانب الصحيح من الأحاديث الشريفة . ونقول الصحيح من الحديث لأنه لم ينل ضرب من التخصص في الحيطة والحذر والدقة والاجتهاد والحرص مثل ما نال علم الحديث . فلقد سهر رجالاته حباً في رسول الله عليه الصلاة والسلام . وتفانياً في حفظ أحاديثه لينقلوا إلينا بكل أمانة هذا التراث الخالد . أما موجة التشكيك التي يطرحها البعض الآن حول صحة الحديث فهي تدخل بدورها في مسلسل التحدي . . .

التحدي الإعجازي لتدعيم الصلاحية نطرحه إذن في هذا الإطار الواضح مستبعدين بالتالي للشطحات الجانبية والمفتعلة باسم الإحلال أو التبرير . ملتزمين بواقع المواجهة بين علوم تخطو

بخطوات سريعة ومكثفة ومتجددة مرتكزة على التكنولوجيا ومعتمدة على المنهج ـ متبنية للتجريب والملاحظة ومتخذة من الصناعة وسيلة للتطبيق وبين إسلام لا يتجاهل التعامل ولا يعوقه ولا يتهيب التطلعات العلمية. وإنما يبحث عن ذلك محاوراً متحدياً ومتجاوزاً بالإعجاز . .

لقد أنجزت العلوم إنجازات عملاقة فى استشاس الظواهر واكتشاف قوانينها بما فى ذلك الإنسان كجسد طبيعى بشرى ، فلم يعد يقرأ كنص ويذكر كمجرد تسمية تجريدية ، بل تجرى الآن عليه التجارب والعمليات الجراحية بما فى ذلك القلب والمخ . فهل استطاعت هذه الإنجازات أن تكشف لنا ولو خطأ واحداً ورد فى القرآن أو فى الأحاديث الصحيحة للرسول عليه السلام ، وبعد أربعة عشر قرناً من المعرفة ـ مع أن نصف قرن يكفى لتجاوز معرفة بأخرى أقدر وأنضج نتيجة للتطور العلمى ؟

تعرض القرآن لظواهر الطبيعة والإنسان ودعا إلى التمعن فيها . يقول الحق سبحانه « **وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون** » (١) بل أعطى لنا القرآن الكريم صورة رائعة لتسلسل خلق الإنسان ، اكتشفت التجارب فى المعامل والمخابر جانباً فيه يدعم رؤية الإسلام . وستأتى تجارب أخرى فى مستقبل العصور لتضيف ما يؤكد صدق قول الحق سبحانه :

---

(١) الذاريات : ٢٠ ، ٢١

« فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم . ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » (١)

إن مسيرة علوم الطبيعة والفلك والفضاء بصفة عامة فى كل يوم تضيف برهاناً لإعجاز القرآن لا عليه . هذا القرآن الذى استمع إليه إنسان مكة والمدينة فآمن به وكبرَّ ثم يستمع إليه ابن عصر الفضاء فى القرن العشرين فلا يملك إلا الخشوع والتكبير بدوره .

ومع هذا كان فى إمكاننا أن نصنِّف هذا الحوار وهذه المواجهة بطريقة موجزة تحت شعار أرضية الاختصاص والدفع بها . باعتبار أن الرسالة المحمدية الخالدة تواجه بالعلوم الإنسانية لا علوم الطبيعة . لأن القرآن لم يحدد سوره بسورة : فى الكيمياء وأخرى فى الفيزياء وثالثة فى الفضاء أو الفيزيولوجيا حتى تقارن هذه السور بهذه العلوم . ولكن القرآن أسمى من ذلك وأشمل وأخلد ، فهو كتاب لهداية الإنسان فى كل زمان ومكان . يوضح له السلوك المستقيم وما ينتظره من مصير . فهو يواجه بالعلوم التى تزعم دراسة الإنسان وسلوكه بهدف إنارة الطريق له والمصير . وفى صدارتها العلوم الرئيسية الثلاثة : الأنثربولوجيا المتمركزة حول تراث الإنسان ونتاجه الاجتماعى والثقافى ، والسوسيولوجيا المختصة بدراسته فى

---

(١) الحج : ٥

بيئته الأسرية والمجتمعية وعلاقاته وبناياته . والسيكولوجيا التى تغوص فى نفسيته وأغوارها شعورياً ولا شعورياً كمؤثر ومتأثر ، إلى جانب علوم بينية (أى بين بين) أخرى الدارسة لنموه الديموغرافى والاقتصادى ومناخه وتشريعه وتسيسه وتاريخه وتفلسفه.

إن كانت العلوم البينية الأخيرة هذه فى غالبيتها (اللهم إلا ماندر كالاقتصاد والسياسة) هى علوم وصفية أساساً أو تسلسلية استرسالية كالتاريخ لم تحاول تجاوز الوصف أو الاسترسال إلى التعليل والتخريج وطرح إشكاليات الإنسان. وإنما تصف إنعكاساته فى وسطه وبيئته وتاريخه وعلاقاته وثروته وقواعد سلوكه . تبقى العلوم الرئيسية الثلاثة السوسيولوجيا (علم الاجتماع) والسيكولوجيا (علم النفس) والأنثربولوجيا (علم الإنسان) كعلوم لم تكتف بمجرد الوصف والاسترسال عندهما. وإنما جاءت أيضاً لتعطى تعليلا لرسالة الإنسان . هذه الرسالة — على حد زعمهم — من الإنسان تبدأ وبه تنتهى مرتكزة على « فلسفة الأرض » فى مواجهة حوار السماء « فلسفة وضعية » فى مواجهه التجريد الغيبى والميتافيزيقيا . . .

إن هذه العلوم الثلاثة ومن خلفها فى بعض المناحى أيديولوجيات وفلسفات مقنعة . تزعم أنها جاءت لتوقف إطار التغميض للإنسان وتحد من إستلابه بالأساطير والخرافات والأوهام القديمة والوسيطة المجسدة فى الأديان على اختلاف نزعاتها . . .

غير أننا لن نوسع ونهمش إطار المواجهة بإدخال كل الأديان بما فى ذلك المنقرضة والاشتراكية والنوعية ، والمرحلية السماوية

كالنصارنية واليهودية ، وإنما سوف نركز على الإسلام كنموذج أسمى باعتبار أنه الدين الوحدانى الكامل الشامل لرسالة إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء والرسل..ما قُصّ علينا نبأه أو لم يقص (عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام) أكمله محمد خاتم الأنبياء والمرسلين (صلوات الله وسلامه عليه) إن الدين عند الله الإسلام ومصداقاً للآية الكريمة « **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله** » (١) . . . هل تستطيع هذه العلوم الثلاثة أن تكتشف - باسم تعرية التغميض ورفع الاستلاب - فى الإسلام ما يمكن أن يؤاخذ عليه . . .

سوف نحاول من خلال إطار التخصص والاختصاص لا التفضول والمجازفة أن نواجه إختيارات وإنجازات هذه العلوم الثلاثة بما جاء فى رسالة محمد (عليه السلام) ولنبدأ بالسوسيولوجيا (علم الاجتماع) ثم السيكولوجيا (علم النفس) ثم ننتهى بالأنثربولوجيا (علم الإنسان) . . . العلوم الأساسية فى تحدى الدين .

السوسيولوجيا كعلم وضعى يزعم الشروح الشاملة للظواهر الاجتماعية منذ تأسيسه فى العصر الحديث (بعد اجتهادات المدبهدين البناءة وعلى رأسهم ابن خلدون ورسو ومنتسكيه وغيرهم) مع سان سيمون . وسبنسر . وأوجست كونت . وكارل ماركس .

---

(١) البقرة : ٢٨٥

ثم امتداداته وتطوره عبر الحضارة الغربية بشقيها الليبرالى والماركسى وانعكاسات ذلك على عالمنا الإسلامى العربى المغلف بالعالم الثالث ، إن كان موقف ابن خلدون وهو القاضى المسلم لا يحتاج لمواجهة وموقف روسو ومنتسكيه وغيرهما من الممهدين وحتى موقف سان سيمون لا يحتاج إلى الكثير من التفصيل باعتبار أن هؤلاء كل منهم قد أقر الدين ولكن بطريقته الخاصة بما فى ذلك سان سيمون الذى أكد قبيل وفاته بل وفى لحظات إحتضاره أنه « لا يهدف إلى إحلال العلم محل الدين وإنما الهدف يكمن فى التوفيق والتعاون بين العلم والدين لأن كل منهما لازم للإنسان وإسعاده » (راجع مؤلفنا بالفرنسية فى مجلدين عن **أصول السوسيولوجيات الاشتراكية والدولية** وأثر سان سيمون) . . .

وكذلك موقف سبنسر صاحب نظرية التطور . فبعد تحديه الصارم فى مؤلفاته الأولى عن «**القوانين الأساسية للكون، وأصول علم الحياة . والسيكولوجيا والسوسيولوجيا** » بل تعتبر دراسته الواسعة عن **السوسيولوجيا الوصفية** فى عدة مجلدات. وأصول **السوسيولوجيا** فى عدة مجلدات أيضاً. نقداً معمقاً لنشأة الأديان المنقرضة ، وتطور الأديان الكبرى ومع هذا فنفس سبنسر يؤكد فى مؤلفاته الأخيرة « أن العلم لا يمكن أن يزعم أنه كشف الغموض الذى حاول الدين أن يتكلم باسمه بل ما زالت المعرفة — كل المعرفة — نسبية ، وإن الدين فى أرضيته والعلم فى أرضيته كل يمكنه متصالحاً مع الآخر أن يسهم فى تطور البشرية وارتقائها . . .

هذا التراجع نلمسه أيضاً عند أوجست كونت الذى ألصقت « الفلسفة الوضعية » فى الفترة الحديثة والمعاصرة باسمه (مع أن الواضع لها أستاذه سان سيمون) فبعد مؤلفات كونت فى سن الفتوة الفكرية والتى تحمل عنوان **محاضرات فى الفلسفة الوضعية** وزعمه إكتشاف قوانين التقدم عبر ما أسماه « النظرية العامة للتقدم » أو الحركية الاجتماعية المشكلة لقانون الأحوال الثلاثة لديناميكية الفكر والذكاء الإنسانى : **الحالة اللاهوتية** بفتراتها الثلاث -- فتشية آلت إلى -- إشتراكية آلت بدورها إلى - وحدانية ثم **الحالة الثانية الميتافيزيقية** المترتبة بالضرورة والالتزام على الحالة السابقة بما احتوته من مغالاة فى التجريد والغيبية لتأتى ضرورة الذكاء الإنسانى المجرب والملاحظ فى **الحالة الثالثة : الحالة الوضعية** . حالة المآل للفكر الإنسانى الناضج حيث فلسفته منه وإليه . فلسفة الأرض الملموسة فى مواجهه فلسفة السماء المجردة والغيبية . ومع فلسفة الأرض وفلسفة الإنسان تسود السوسيولوجيا كعلم شامل يحدد رسالة الإنسان ويقود مصير الإنسانية . . .

وكما عاد سبنسر عاد أوجست كونت فى نهاية حياته ليعلن وفاءه لما أطلق عليه « الكنيسة الكونية » الوضعية يعبد فيها الكائن الأعظم تجسيداً للإنسانية . بل ذهب بصراحة العلماء النزهاء يقلب فى الأديان السماوية باحثاً عن الحقيقة ليكتشف فى نهاية المطاف أن الإسلام كدين وحدانى يتمشى مع الحالة الوضعية لخلوه من التغميض والعبث . وتميزه بالعملية وببساطة شعائره . . .

بقى كارل ماركس كأحد عمداء تأسيس السوسيولوجيا ، هذا العلم الذى ضارب عليه وباسمه الكثير . وما زال البعض يضارب به حتى الآن ليخلف ، الدين فى ريادته للمجتمعات الإنسانية وقيادتها نحو التقدم .

إن موقف كارل ماركس من الدين فى مراحل شبابه وتأثره باليسار الهيجلى خصوصاً : فيورباخ ، وجانز ، وموزيس ، وروجيه ، وبوير وغيرهم معروف من خلال مؤلفه « **الأيديولوجيا الألمانية** » فقد طرح الدين كأيديولوجيا إستلابية متصدرة مرتبطة عضوياً بالبنية الفوقية للمجتمع أسهمت وزكت الدور الاستغلالى لهذه البنية بالتخدير والتنويم الغيبى والاغتراب . . .

ولكن الذى يجهله غير المتخصصين فى الماركسولوجيا (علم الماركسية) والذين لم تتح لهم فرصة متابعة مسيرة ماركس الفكرية بدقة من البداية إلى النهاية ، أن كارل ماركس لم يسلم من الارتداد كغيره من عمالقة الفكر الإنسانى فى نهاية حياته ، حيث مراسلاته مع « البابا » ومع زعيم ثورة الفلاحين فى ألمانيا آنذاك «منزيل» وكذا موقفه من البلانكيين ومظاهراتهم المعادية للدين ... كل ذلك يؤكد تراجعه خصوصاً حينما صرح بوضوح فى نهاية حياته أنه « لم يك أبداً الهاتف بموت الإله الذى **ما تنكر له**ـ على حد زعمهـ وإنما كان يسعى ويهتف دائماً بتحرير الإنسان ، فالمشكلة ليست فى إنكار الإله ولكن فى تحرير الإنسان » . . . (راجع للتفصيل دراستنا عن الماركسية والدين) .

لقد عاد ماركس أو بعبارة أكثر وضوحاً ارتد ماركس عن ماركسية شبابه فى شيخوخته . إنها عودة مقنعة كغيره من العائدين ولكنها جديرة بالإشارة خصوصاً بالنسبة لمن يرتدون عبادة الماركسية بهدف النيل من الدين والتشكيك فيه . لقد تراجع الكاهن الأعظم للمعبد فمن الأولى أن يتراجع مريدوه وفاءاً له ولفكره .

وهكذا السوسيولوجيا (علم الاجتماع) التى زعمت خلافة الدين فى قيادة الإنسانية تراجعت من خلال مؤسسيها لمن يعمق الرؤية والاستيعاب ولم يقف عند القشور ويتبنى المضاربات والمجازفات والتهور عملا بسلوك (خالف تعرف) كأمثال هؤلاء الذين ما انفكوا يبيعون بعض الألفاظ والمسميات المنمقة التى تتميز بالانفعال . وتنم عن التصنع فى الكلم بهدف سمسرة الغش وتعميم التزيف الفكرى ، نظراً لغيبة التكوين المعمق لديهم ، وفاقد الشىء لا يعطيه ، ونعنى بذلك هذا الاتجاه السوسيولوجى السطحى فى العالم الثالث الذى لم يعرف من السوسيولوجيا إلا العناوين يتقيأ من خلالها معاناة قصوره وانعكاسات عقده ومشاكله الشخصية.

لقد تطورت السوسيولوجيا مع المجتهدين بعد المؤسسين وحتى الاتجاهات الرئيسية المعاصرة ، سواء لدى الإنجلوسكسون أو الفرنسيين أو الألمان (باستثناء الاتجاه السوفييتى الذى بعد رفضه للسوسيولوجيا مع ستالين واعتبارها علم البرجوازية الصغيرة عاد فى الستينات ليركب فى موكبها بعد اكتشافه لعطائها وقدرتها

وليتخذ منها وسيلة للمضاربات والتفنيد لحاجة فى نفس يعقوب) وتعددت التيارات داخل هذه الاتجاهات بين تيارات ليبرالية تفهمية (ماكس فيبر) أو تيارات مدعمة للدين مثل ما يعرف بسوسيولوجية الرعاة وكيف أن دراسة المجتمع تؤكد صلاحية الدين ومشروعيته ، أو تيارات ماركسية تبنت الجانب العملى فى السوسيولوجيا فى أرضها لتزيد معرفة بقاعدة المجتمع ومناحيه (كما هو الحال الآن فى الاتحاد السوفييتى) ولكن هذه التيارات الغربية بشقيها الليبرالى والماركسى رغم تعارضها فى الاختيارات التقت ضمنياً فيما تصدره لعالمنا الثالث من أطروحات مغلوطة وسطحية بهدف تعتيم الرؤية لنا من تشكيك فى تراثنا وأصالته وحقيقة عطائه التاريخى ومن أساليب خطابية متشنجة تحمل راية الاعتراض والتمرد والتدمير . ولكن على من ؟ ومن أجل من ؟ الاعتراض على الذات والتمرد على تاريخ معاناتها وتدمير أرضيتها ماذا تبقى إذن ؟ ؟ .

إن السوسيولوجيا كعلم اجتماع وضعى رغم أطروحاته المبدئية المتحفظة على الدين فى شكل محتشم بل ومرتد فى أغلب الأحيان ما استطاعت ـ ولن تستطيع ـ أن تصبح بديلا للدين أو تبنى مجدها على حسابه . بل رأينا قادة تأسيسها ومن بعدهم المطورين لها يعودون بها إلى التصالح مهزومين أو مقتنعين بصحة وصلاحية الدين والإله . وصدق الحق سبحانه « **وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما**

لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » (١) . . وما تبقى من السوسيولوجيا الرافضة المتحدية فى البداية إلا زمرة من المغرورين والمتنكرين للحق والمتكبرين عليه ممن صرفوا عن آيات الله كما قال الحق « **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها** »(٢) . . .

* * *

والسيكولوجيا (علم النفس) بدورها كعلم حديث اعتلى بعض مؤسسيه موجة الإنكار بل غالى جانب منهم إلى حد التبجح المرضى حينما وصف الأنبياء بأنهم عصابيون وكما يقول المثل : رمتنى بدائها وانسلت . فما العصابيون إلا هم كبرت كلمة تخرج من أفواههم . لقد قادهم ظنهم المخدوع والمخادع إلى تبنى أطروحات فورية سهلة وجاهزة . وصدق عليهم التحدى « **هل عندكم من علم فتخرجوه لنا . إن تتبعون إلا الظن** » (٣) . .

فلئن كانت إتجاهات نفسية كمثال « كارل جوستاف يونج » تعرضت للسيكولوجيا وموقفها من الدين (مؤلفه المنشور سنة ١٩٣٩) بهدف خلق أرضية تفهمية فاتجاهات أخرى (مثل فرويد) ناصبت الدين ضمنياً القطيعة والعداء . وراهنت من خلال التحليل النفسى واللبيدو الجنسى . وتفسير الأحلام

---

(١) الدخان : ٣٨ ، ٣٩ (٢) الأعراف : ١٤٦ .

(٣) الأنعـام : ١٤٨ .

مراهنات أكدت لنا فى النهاية صدق معاناة واضعوها لا معاناة الدين . وبعد فشل العديد من الأطروحات حاول ابعض الإنقاذ أخيراً عن طريق ربط مصير الفرويدية بالماركسية وخلق أرضية مشتركة بينهما . إن مسلسل الانتحار لديهم والذى أكد لنا حقيقة هذه المعاناة . ودون أن نعرِّض بأسماء المتأذين نفسياً بل والمنتحرين من المحللين النفسيين (حتى لا يفهم أن ذلك من باب التشفى) يجعلنا نذهب إلى حد القول — وبلا مجازفة — أن المجتمعات البشرية وفى كل عصورها التاريخية ما عرفت مثل ما تعرفه الآن من انتشار للمعاناة النفسية والقلق والاضطرابات العصبية نتيجة ليس فقط لتلوث البيئة وتزييف العلاقات الإنسانية وإنما لتلوث الأفكار والقيم الروحية والمبادىء الأخلاقية والتشكيك فى صلاحية كل شىء من أجل لا شىء كما أكد ذلك كبار الرواد المعاصرين من علماء النفس النزهاء . . .

إن السيكولوجيا (علم النفس) كعلم يحاول تفهم الظواهر النفسية من خلال إنعكاسات البيئة الأسرية والمجتمعية، وإنعكاسات البنية العضوية والفيزيولوجية لأجهزة الجسد على حالته النفسية، ومدى تكيفه مع ما يحيط به منذ المراحل الأولى للنمو النفسى عند الطفل حتى النضوج والشباب والشيخوخة ، لهو علم جدير بالاهتمام، بل يمكنه أن يسهم فى مسيرة الحضارة إيجابياً كمصحح لها على مستوى الإنسان ... ولكن حينما اتخذ البعض منه — ممن ارتدوا عباءته — وسيلة لبث السموم والأفكار المغرضة ضد الرسل والأنبياء

دعاة الصلاح الإنسانى وارتقائه الحق إلى أرفع درجات السمو . وذلك لتصفية حسابات شخصية وربما مرضية مع الدين ، حادوا به عن سبيله وهدفه .وأقحموه فى عراك مدمر وسّع من دائرة التشكيك فى كل القيم والأسس الضامنة لتوازن الإنسان . فلا يمكن لإنسان متنكر لحقيقة تركيبه المزدوج –روحى ومادى – أن يحل مشكلة ازدواجيته لحساب ماديته إلا بالانتحار النفسى والعراء فى داخل ذاته وتحوله إلى هيكل أصم ، آلى ، شرس ، جنسى باحث عن الإشباع الغرائزى بشكل صريح أو مقنع ، مقوض لكل إنسانية فى الإنسان . . .

رمع هذا فهناك جانب لا يستهان به من علماء النفس العمالقة عرف حقيقة الدور التفهمى لهذا العلم وحاولوا – وما زالوا يحاولون – من خلاله ،وتحت رايته تدعيم أرضية المصالحة فى داخل الإنسان بين روحانيته وماديته ليعم بعد ذلك التصالح على مستوى البشرية بدلا من التدمير والانتحار ، والبناء بدلا من التخريب والانهيار . . . وإلا لنا الحق فى أن نتساءل هل استطاعت المعيادات النفسية المنتشرة فى الكون أن تعيد لمريض افتقد ترازنه الروحى والمادى وأصبح يعانى من مشاكل افتعلها بتطلعاته المادية الجشعة . صفاء النفس وتعادلها ؟ أم زادته تأزماً حينما رقعته بكل مصطنع وملفق من التركيبات الكيماوية الملونة لكيانه العصبى العضوى أو الوظيفى : لا يهدأ إلا بمخدر . ولا ينام

إلا بمنوم ولا يقف إلا بمقوى . . . أين نحن به من هذا الإنسان البسيط فى باديته بعد أن حرم واستضعف من أخيه الإنسان وقفلت أمامه أبسط أبواب الرزق ، وأصبح يواجه كل مشاكل الحياة وضرورياتها الحقيقية، لا شهواتها أو زيناتها المفتعلة . بقوة الإيمان والثقة فى الله شامخاً ينطق باسم ربه فيعيد إليه ثباته، ويدعم صبره ليواجه كل الصعوبات بابتسامة عميقة ، وقلب صاف ونوم هادىء، وحركة كلها جلد وقوة وإصرار ، مصداقاً لقول الحق: « **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** » (١) . . . .

إنه الفرق الناصع والفارق الشاسع بين أتباع الكتاب الإلهى الذى لا يأتيه الباطل ، وبين أتباع الكتب المغشوشة التى وضعها بعض المرضى المقنعين من أبناء الإنسان . لقد تعرض قرآننا الكريم للعديد من الظواهر النفسية وجعل الإيمان هو العلاج الأسمى « **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** » (٢) فهل استطاعت السيكولوجية المتنكرة — لا السيكولوجية المتفهمة، ونحن من دعاتها ومن المدافعين بل والمتحمسين لها — أن تعطى بديلا ؟ إننا نتحدى ، لقد قرأنا كتبكم وها هو كتابنا فاقرأوه . . .

لم تستطع سيكولوجية المشككين العابثين بقداسة النبوة

---

(١) البلد : ٤ (٢) الإسراء : ٨٢

أن تسجل ولو إصابة واحدة ضد ديننا الحنيف الداعي للتعادل والتوازن والوسطية . بل اكتفت برفع شعارات القطيعة وصياح الأزمة والتأزم والاستلاب . والإحباط . وتعميم الرجس وكانوا أول ضحايا هذه الشعارات والصيحات فعانوا وما زالوا من التأزم والاستلاب والإحباط . بل والانتحار . وبقي الدين بقوله الحق وبكلمته النزيهة الرائدة الصادقة خير مرشد ودليل وحكم ليعطي لنا من خلال هذه الآية الكريمة مبدءاً نفسياً خالداً جاعلا من الإيمان الشارح للصدر المعيار لكل تعادل نفسي « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** (الدين الشامل الكامل مع محمد عليه السلام) . **ومن يرد أن يضله** (متروكاً لنفسه بعد أن أدار ظهره للرسالة) **يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس** (قازورات التلوث في مختلف صوره وأشكاله) **على الذين لا يؤمنون** » (١) . . .

* * *

والأنثربولوجيا (علم الإنسان) إجتماعية كانت أم ثقافية وهي في مطلعها بنت ركناً من أركانها على الخوض في الدين . ماذا قدمت باعتبارها المتصدى والمتحدى الرئيسي المضمر لصحة الوحي الإلهي ورسالة السماء . . ؟ . . فقد انطلقت من ربطها للدين الإلهي بأرضية الأديان البدائية المنقرضة والتي ربطت بدورها بظواهر الطوطمية والإحيائية والفتشية وظواهر السحر والمانا . . .

(١) الأنعـــام : ١٢٥ .

من ديركايم . وموس . وليفى برول . وهوبرت . وهوفلان . وكودرنجتون . وليمان . ومالينفسكى . وفريزر . وآنيه ... وغيرهم من كبار علماء الأنثربولوجيا والباحثين فيها . . .

لقد حاولت الديركايمية ممثلة فى « ديركايم » أساساً وما تلا ذلك من موس . وليفى برول . وهوبرت . وهوفلان . . . أن تطرح مع ديركايم فى **الأشكال المبدئية للحياة الدينية من خلال النسق الطوطمى** نشأة الأديان ودراستها فى أشكالها الأولى المبسطة دون التزام بصحة أو عدم صحة الدين . فما الدين عند ديركايم إلا إسقاط سامى للحياة الدنيوية . وذهب « ليفى برول » إلى حد الزعم أنه من الصعب عزل الدين عن السحر لأنهما ينتميان إلى جوهر واحد غطى فترة ما قبل الدينية بمرحلتها الكبرى . بينما يرى « موس » و « هوبرت » و « هوفلان » أن هناك إمكانية للتمييز بين الدين والسحر . فالدين له قداسة والتزام جماعى مشترك بعكس السحر . وأن الأصل لكل منهما انطلق من « المانا » . فالجانب المقدس من « المانا » يمثل أصل الدين والجانب غير المقدس يمثل أصل السحر . غير أن « كودرنجتون » وهو من أكثر الباحثين إجتهاداً فى ظاهرة « الماز » حددها على أنها قوة خفية كامنة فى الكائنات والأشياء وليست قوة علوية كما هو الحال فى الدين . وتوسع « ليمان » بدوره فى دراسة « المانا » من « مانا » تؤثر فى الإنسان و « مانا » تؤثر فى الحيوان والطيور

والأشياء ، و « مانا » خاصة بالإله والأرواح . بينما « مالينفسكى » ركز على أهمية دور السحر فى المجتمعات البدائية . أما « فريزر » فقد قال بأن السحر هيأ للدين . وهو قوى العلاقة به ، بل ذهب إلى حد الزعم بأن الدين خرج من السحر كما خرج من الدين العلم والفن ، بمعنى أخطاء الساحر وعدم تجاوب الطبيعة معه . مهدا للتسليم بوجود قوة أخرى متجاوزة وعالية تغطى هذا القصور ، ومن ثم كانت الأديان مرحلة تالية للسحر انطبعت بالتعقد فى الطقوس والمزاولة . ويعارض « آليه » هذا التفسير فهو يرى على العكس السحر لاحق للدين نشأ عنه بعد أن أفسد بعض عناصره وأن الساحر مبنى فاشل أو مغشوش .

من كل هذا نرى عدم الاتفاق بل والتعارض بين مختلف آراء علماء الأنثربولوجيا فى هذه القضية ، حتى بين أتباع المدرسة الواحدة كما هو الحال عند الديركاميين » . ولعل الالتباس الرئيسى الذى وقع فيه هؤلاء الباحثون . أو أراده البعض حقيقة نهائية يضارب عليها هو غموض تقنينهم لأديان البدائيين وعقائدهم المنقرضة ومحاولة افتعال استمرارية بين هذه المعتقدات المنقرضة والأديان السماوية الكبرى والقياس عليها . مع أن الأديان الوحدانية السماوية اتخذت أساساً كهدف لها تأكيد القطيعة الكاملة بين المعتقدات الوثنية وبينها . وحثت على القضاء عليها ، بل دعت إلى نفس القطيعة مع مرحلة أكثر تطوراً فى عقائدها . وهى

مرحلة تعدد الإله أو الإشراك . وحثت أيضاً للقضاء عليها ، فكيف يمكن التسليم بهذه الاستمرارية التى لا وجود لها إلا فى عقول صانعيها من الباحثين عن الأضاليل . وتزيف واقع التاريخ خلق تكامل وهمى بين مرحلتين فى الواقع متباينتين تماماً . مرحلة الوثنية والإشراك ومرحلة الوحدانية ، بل جاءت الأخيرة هادية بنور السماء إلى نبذ الأولى والتخلى عنها ، وبشكل واضح وكامل مع الإسلام باعتباره الدين الوحدانى الشامل لكل الأنبياء والرسل وانتهى بمحمد (عليه السلام) كخاتم للأنبياء والمرسلين .

وحتى علاقة السحر بالدين ، أى دين يقصد ؟ إن كان المقصود الأديان البدائية المنقرضة فالقضية غير مطروحة بالنسبة لنا فى الدين السماوى الوحدانى باعتبار أن موقف الدين الإسلامى الدين الوحدانى الشامل الكامل ، واضح كل الوضوح سواء فيما يعنى التعامل مع الطبيعة وما وراء الطبيعة ، أو من حيث المعتقدات والشعائر . فالدين الوحدانى أمام الطبيعة فى مواجهتها يحتكم لإرادة الله خالق الكون . بينما السحر يلغى كل تحكيم وإرادة . والدين فى جوهره ينطلق من علاقة بين خالق ومخلوق ، فلا دين بلا إله والسحر العكس .

وهكذا نرى أن افتعال هذه الإشكالية من قبل مجموعة من الأنثربولوجيين ، أكثرهم من اليهود الخارجين حتى على يهوديتهم ولديهم مبيتات وعقد إنغلاقية وهموم عميقة سعوا إلى تقيئها لنيل

من الأديان السماوية الخالدة بالبحث عن ربط مصطنع بين المنقرض والحي الدائم المستمر الخالد . وكأنهم كانوا جالسين على مقهى وهم يرون هذا المشهد العجيب من تحول المعتقدات البدائية إلى عقائد سماوية !

إن التنكر للواقع التاريخي بافتعال واقع مكتبي مبني على مجرد ملاحظات وثائقية عن ما هو موجود حالياً في بعض القبائل المعاصرة التي تعاني من التخلف (لا نقول البدائية) لأنها قبائل راحت ضحية لتسلط الاستعمار الذي أصر على حرمانها من التطور بل حتى من الحياة الكريمة . والاحتفاظ بها محنطة في ثلاجات الجهل والتخلف لكي يُتعرف على نشأة البشرية وكيف كانت من خلالها . . هذه المقولة الواهية نتحفظ عليها ليس فقط باسم العقل والعقلانية وصرامة التحدي ، وإنما أيضاً باسم أبسط مظاهر إنسانية الإنسان .

لقد تأزمت الأنثربولوجيا المتخصصة في المجتمعات البدائية بعد أن فرغت من محتواها بفضل هبوب رياح استقلال الشعوب المستضعفة المغلوب على أمرها منذ منتصف هذا القرن ، ولم يعد في الإمكان الاحتفاظ بمجتمعات بشرية لتظل مجرد نماذج بدائية محنطة يتلهى بها جانب من الباحثين الغربيين . وكان على الأنثربولوجيا أن تبحث عن إطار ديناميكي يدرس « واقع التجانس في المجتمعات الفتية » ، ومن ثم كانت الدراسات الجادة ، لجورج بلاندييه

كمثال وغيره الكثير عن القارة الإفريقية والعالم الثالث . لقد تأكد لنا ومازلنا أحياء أن أسطورة الأنثربولوجيا المختصة والمتخصصة في المجتمعات البدائية لا تقل خرافة عن الأساطير التي تقوم ببحثها . وعليه فالمعركة المفتعلة بين الأنثربولوجيا الاجتماعية الثقافية والأديان السماوية الخالدة تجاوزتها الأحداث بعد أن استنفدت أغراضها، واستُهلكت واستهلك معها القائلون بها.

❋ ❋ ❋

وبقي التساؤل العريض مطروحاً . وهو لماذا اتخذت هذه العلوم الرئيسية الأساسية الثلاثة : السوسيولوجيا (علم الاجتماع) والسيكولوجيا (علم النفس) والأنثربولوجيا (علم الإنسان) هذه المواقف المتحدية للأديان السماوية الخالدة ! ؟ وقد تعرضنا لأبعادها وقصورها وتأزمها وتجاوزها في النهاية . لماذا علوم حضارة الغرب المتخصصة في الإنسان أرادت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . صريحة أو مقنعة أن تستأصل جذور الروحانية وتطرح مبدأ القطيعة مع السماء متبنية لفلسفة الأرض ، فلسفة من الإنسان وإليه !؟ .

هل هذه المواقف المتحدية تعبر عن هموم غربية تبحث لها عن أسواق خارجية كما هو الحال في أغلب بضائع الغرب ؟ . أم تعبر عن إشكالية كونية تغطي فترة من فترات التطور الفكري ،

على الإنسانية أن تمر بها وتعبرها ؟ . أم هى مؤامرة مدبرة من جماعة محددة ضلت وتسعى إلى تعميم الضلال والتعتيم ؟

تساؤل يطرح ونحن بصدد الحوار بهدف التحدى الإعجازى لديننا الخالد عبر العصور .

إنها كل هذه الأسباب مجتمعة . وإن كان السبب الأساسى هو أنها أولا وقبل كل شىء « هموم غريبة » تزيت بزى المشروعية الكونية نظراً لتفوق الحضارة الغربية وريادتها بل وتسلطها وسطوتها . وتبلورت فى بعض مراحلها فى شكل مؤامرة تسعى إلى تعرية العالم الثالث المتمحور حول الأمة الإسلامية العربية إنسانياً وروحياً بعد أن عرته من خيراته الطبيعية . . إنه مسلسل الاستنزاف وإزابة الهوية ليسهل الابتلاع — أو على أقل الفروض — التهميش فى انتظار استعادة الغرب لتوازنه المهتز ، لأنه إن كان قد خسر نسبياً الروحانيات فقد اكتسب الكثير تكنولوجيا ، وصناعياً ، وعلمياً متدرجاً بذلك فى سلم الرفاهية والرخاء المادى . أما عالمنا الإسلامى العربى فعليه — إن لم ير حقائقه بموضوعية — أن يضيف إلى تعاسته المادية يتمه النفسى ، وأن يكمّل عراء جسده بفقدان روحه وروحانيته . . من هذا المنطلق نحاول منهجياً طرح أسس التحدى الإعجازى للإسلام ووضعها فى إطارها الحق دون مغالاة أو تجريح أو انفعال .

* * *

إن التحدى للأديان السماوية الخالدة كما هو متطور الآن

يجسد فى أرضيته هموم الغرب . فكما نكرر دائماً إشكالية التحدى للدين إشكالية غربية فى صورتها المعاصرة مهما تقنعت لتصبح كونية . فبعد أن عاش الغرب ما يقرب من ألف عام أو يزيد فى عصوره الوسيطية المظلمة . عصور تسلطت فيها بعض الأنسقة النفعية باسم الكنيسة والدين. مستغلة التجريد الميتافيزيقى والصورى لشل فكر الإنسان. غير مكتفية أو قانعة برضعه السلبى . وإنما حاولت مصادرة تفكيره وتحجير عقلانيته . محتكرة الإفتاء له والحكم والتبرير من المنطلق إلى المصير . عرف مع احتكاكه بحضارتنا الإسلامية العربية المشعة آنذاك بداية إرهاصات التساؤل العقلانى الذى اتخذ طريقه ليس فقط إلى من أعيانهم البحث عن كيفية التحفظ على الاحتكار الكنسى للفكر . بل إلى بعض الكنسيين أنفسهم (كمسر ومثال تأثير المدرسة الرشدية — نسبة لابن رشد — على القديس توماس الكوينى ومن حوله) وحاول كل فريق أن يستغل المعطيات العقلانية الإسلامية لتدعيم اتجاهه أو موقفه .

هذا التحفظ المتردد على التحكم اللاهوتى آل فى فترة تالية من مسيرة النهضة الحديثة فى الغرب بعد نهاية العصور الوسيطة إلى مدارس فلسفية نقدية متعددة . أصّلت بدورها لعصور الأنوار والمعارفيين واستعادة الثقة فى الإنسان المواجه الذى لم يكتف بالتحفظ والنقد ، وإنما تجاوز ذلك إلى الاعتراض والاحتجاج بل إلى التمرد والرفض باسم العلمانية للحد من نفوذ الكنيسة وتحجيم

مسئولياتها فى الحياة الدنيوية واستبعادها وطرح البدائل الوضعية لقيادة المجتمع باسم فلسفة الإنسان أو فلسفة الأرض فى مواجهة فلسفة السماء لديهم فى الغرب .

وهكذا شهد القرن التاسع عشر ليس فقط بلورة الاتجاه الوضعى السانسيمونى أو الكونتى (نسبة لسان سيمون وكونت) والتطورى السبنسرى (نسبة لسبنسر) والداروينى (نسبة لداروين) والماركسى (نسبة لماركس) وإنما نضوج علوم تدافع عن فلسفة الإنسان الوضعية هذه . مثل العلوم الرئيسية التى أشرنا إليها سلفاً : السوسيولوجيا (علم الاجتماع) . والسيكولوجيا (علم النفس) . والأنثربولوجيا (علم الإنسان) . ولقد زكى الاجتهاد المنهجى الذى تدعم بالمسيرة الفلسفية الموازية . التقدم العلمى الذى زكى بدوره تنوع المنهج بتعدد التخصصات فيه . وخلقت الثورة الصناعية ميداناً تطبيقياً لممارسة التكنولوجيا كمعرفة رائدة .

ومن ثم تكاملت هذه العوامل ينشط بعضها بعضاً فى مجتمعات غربية (ماركسية تبنت العلمانية قلباً وقالباً ، أو ليبرالية تبنتها نسبياً بشكل صريح أو ضمنى) كان عليها أن تصفى حساباتها مع الدين . وقد جسدت فيه خطيئة بعض الأنسقة الكنسية الوسيطة ومسئوليتها التاريخية فى استمرار فترة ركود تجاوزت الألف عام

من تاريخهم وهمومهم (لا تاريخنا وهمومنا) . حيث فى نفس هذه الفترة الموازية تاريخياً كان ديننا الإسلامى هو المدافع عن مشروعية الوجود الدنيوى للإنسان لا إلغائه . واعتبار هذه المشروعية المنطلق للحياة الأخروية الخالدة .

فما طرح الإسلام أبداً كمبدأ « سلبية الإنسان » فى الحياة . بل إيجابيته . وما دعا إلى شل فكره وتحنيطه وتكهفه وتحجره . وإنما دعا إلى إشراقه وتبصره وتدبره وتحرره ... وهكذا عرفنا نفس الألف عام الوسيطة لا كعصور جمود وركود كما هو حالهم فى الغرب آنذاك . وإنما عصور مواجهة فكرية خلاقة بين الاتجاهات السلفية القادرة . ممثلة فى أهل السنة . وبين اتجاهات اعتزالية . وإخوان الصفا . ومفكرين حاولوا هضم التراث العقلانى الإنسانى . وأهل خلف : أشاعرة أو ماتريدية واجتهادات أخرى متعددة وفى كل اتجاه . وذلك بالرغم مما كانت تعانيه المجتمعات الإسلامية من انشقاقات وصراعات سلطوية وتحرشات خارجية من الطامعين وممارسة السلب والنهب والحروب .

فالإسلام كمسيرة حضارية من الخطأ بل من العار أن تجسد فيه الخطيئة والإدانة لمجرد أن الغرب جسد الخطيئة والإدانة فى الدين . بل علينا أن نبحث عن خطأ الإنسان البشر لدينا . الذى لا يحمل حالياً من الإسلام إلا العنوان والتسمية . ليس لدينا أزمة دين أو أزمة مبادىء روحية ، وإنما لدينا أزمة سلوك بشرى تجاه

الدين وصدق الحق سبحانه إذ يقول : « **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** » . . (١) . وكما نكرر دائماً : من الأولى أن نردد « وابشراه ! » لا « وإسلاماه » فالإسلام بخير وليس لديه مشكلة بل المشكلة مشكلتنا نحن **والإسلام هو الوحيد القادر على حلها ولا بديل له . . .**

إنه يتحدى فى صلاحيته كما يتحدى فى ثباته . يتحدى كقوة دافعة للمجتمع . كما يتحدى كقدرة محركة للعقل ، يتحدى فى مواجهته ، كما يتحدى فى صمرده واستمراره داخل القلوب والأفئـــدة .

لقد رأينا كيف أن النظرة الفاحصة الهادئة البعيدة عن المبيتات والتشنج والعفوية قادتنا إلى مواجهة نزيهة مع علوم الإنسان الحديثة المتزعمة فى التصدى للدين عند الباحثين الغربيين إلى جانب تيارات الفلسفة المادية ، وكيف أن هذه المواجهة أكدت لنا أيضاً أن هذه العلوم لم تكشف قصوراً فى الدين الحق : الإسلام ، بل هى التى تعانى من القصور والأزمات الموضوعية فى تطورها ، وحينما تصل بالتحدى إلى غائيته وهى مآلية الإنسان ومصيره ،

---

(١) الصف : ٢ ، ٣ .

وأن دور المتمسحين فى الدين كأنسقة بشرية نفعية لا كتعاليم روحية خالدة . لا يمكن أن يؤخذ بخال حين فشله . على أنه فشل للدين . .

فنحن كنا – ومازلنا – نميز دائماً وأبداً بين الدين الوحدانى الخالد الشامل لإبراهيم الحنفى المسلم . وموسى . وعيسى وبقية الأنبياء والرسل من قبل ومن بعد (عليهم أزكى السلام) حتى محمد صلى الله عليه وسلم خاتم أنبياء ورسل هذا الدين وبه أكمل . وبين من يرتزقون عنصرياً باسم يهودية تجسيمية مفتعلة . أو مسيحية تجريدية مصطنعة وتشبيهية . . اليهودية يهودية موسى وجماعته . والمسيحية مسيحية المسيح وحواريه . والإسلام الشامل لهما . ومنذ بعث الوحدانية فى الأرض إسلام محمد وكل من سبقه من الأنبياء والرسل . ومن تبعه سلفاً وخلفاً إلى يوم الدين . وما يفتعل غير ذلك ويرتزق به فمردود لأهله . ولتكن الإدانة واضحة فى هذا الشأن حتى لا يعوم الدين فى مستغليه . وتعتم الرؤية أمام أجيالنا الصاعدة . . فالذين أخطأوا فى حق الدين ليسوا من رجال الدين . وخطيئة الغرب وهمومه تعنى الغرب والغربيين . ولا داعى لتصديرها كما صدرت إلينا كل بضائعهم الاستهلاكية .

الإسلام يتحدى إعجازياً إذن فى هذا العصر من منطلقات موضوعية . يتحدى لأن حركة العقل المتبلورة فى تقدم وعطاء،

علوم الإنسان الرئيسية المعاصرة لم تسجل إصابة واحدة فى مرماه وبعد أربعة عشر قرناً من المسيرة الخالدة وبدلا من أن يتأزم الإسلام تأزم المتحاملون عليه . فالكل يرفع الآن شعار أزمة الحضارة الغربية المادية المعاصرة (لمن يريد لتفصيل عن أزمة الحضارة المعاصرة يراجع المجلد الخامس من نظرية المراهنة الصناعية : **الصناعة وأزمنة الحضارة** . شاركنا فى وضعها مع مجموعة من علماء الغرب بالفرنسية) إصابتها ردت إليها ، وكان المفروض لو أن الإسلام مجرد نظرية بشرية — كما يزعم الأدعياء — لا إلهية خالدة لما استطاع أن يثبت أكثر من حياة جيل أو نصف قرن عملا بمبدأ تطور وتجدد الرؤية البشرية للإنسان عبر الأجيال وديناميكية المجتمعات وآلياتها فى التغيير بين التخطيء والتصويب بهدف التصحيح أولا بأول . وكم من نظريات كبرى عملاقة لا يمر عليها أكثر من قرن وتبدأ فيها الشقوق ريعتريها التأزم (مجرد مثال معاصر النظرية الماركسية وهى من أقدر النظريات دون شك ، ويحاول الآن شراحها ونقادها — ونحن منهم — كشف قصورها للتجاوز على ضوء الذى جد على الإنسانية خلال عصر الفضاء والذرة ، وخلال قرن فقط) ... إن كان هذا حال النظريات المعاصرة فمن باب أولى إذا كانت نظرية الإسلام نظرية بشرية — حاشاً لله — كان عليها أن تُتَجاوَز بعد قرن أو قرنين أو على أكثر تقدير ثلاثة وقل أربعة ، أو حتى مطلع ضربات

عصر النهضة الغربية العقلانية العلمية المنهجة ... أما وقد ثبتت في الأرض لأنها إلهية خالدة لإنقاذ الكون ، مصداقاً لقول الحق : « **فأما الزبد فيذهب جفاءاً ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**» (١) . فعينا أن ننحني إجلالا لله ونصلي ونسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** »(٢) صدق الله العظيم .

* * *

وبقيت لنا في جولة التحدي الإعجازي للإسلام في هذا العصر عنصراً أساسياً . آن الأوان أن نطرحه في نهاية المطاف . وهو إن كانت الاجتهادات العقلانية الفلسفية ، ثم الاجتهادات العلمية ، لم تكشف قصوراً في الإسلام ، بل الإسلام واجهها وتجاوزها . . هل يمكن أن نراهن على أقدر ما في هذه الاجتهادات المعاصرة وهي قدرة المنهجية باعتبارها القدرة الرائدة لكل تحدي في ميدان الفكر السائد حالياً ؟

فمن المعروف أن حضارة الغرب المسيطرة كونياً بشقيها الليبرالي والماركسي تراهن — بين ما تراهن عليه في الصدارة — على عطاء المنهج ليس فقط على مستوى الظواهر الطبيعية واكتشاف قوانينها معملياً بفضل الملاحظة والتجريب ، وإنما أيضاً على مستوى الظواهر الإنسانية ، فقد حاول المجتهدون في هذا الشأن

(١) الرعد : ١٧ .　　(٢) الحجر : ٩ .

تطبيق منهجية الملاحظة . وفى بعض الأحيان التجريب والاختبار ، على الظواهر الإنسانية هذه ، لا عن طريق عزها معملياً والسيطرة عليها ، واكتشاف قوانينها . كما هو الحال فى لظواهر الطبيعية ، وذلك لوعى الإنسان بالتجربة ، وصعوبة عزله كظاهرة إنسانية عن بيئته . والحد من تداخل العلاقات المسيرة له . وإدخاله إلى مخبر أو معمل لإجراء تجارب على عواطفه ومشاعره ، وحبه وكراهيته . وميله رنفوره . وما يدور فى داخل أغواره وأعماقه . وإنما عن طريق استغلال قدرة الملاحظة وتنوعها وتعددها سواء ملاحظة غير مباشرة بفضل التوثيق لكل ما له علاقة بالظاهرة من مصادر ومراجع كتبت عنها أو سجلت سمعياً أو بصرياً أو ملاحظة مباشرة تتبنى التعامل ميدانياً مع الظاهرة بإجراء استطلاعات وتحقيقات حقلية . بما فى ذلك من « مقابلات » و « اختبارات » و « دراسة حالة » و « قياس اجتماعى » يرتكز على المعطيات الإحصائية واستغلال لكل طرق البحث المعروفة علمياً فى هذا المضمار خصوصاً « الملاحظة بالمشاركة » والعيش مع الظاهرة فى فترات متباينة أو متتالية . متعددة ومتنوعة . فى محاولة للتعرف على كل أبعادها ومراميها حجماً ، وكماً وكيفاً . وصفاً وتفسيراً وتحليلا ، بهدف التعرف على كل العوامل المهيئة لسببيتها وما يترتب عليه من استنتاج موضوعى وتخريج صارم .

فلم يقف التفكير عند حد التجريد المنطلق من مسلمات

وبديهات وتعاريف ، ومعتمداً على الاستدلال ليصل إلى نتائج قياسية « إذا كان » ، فعليه يكون » وإنما طرحت فرضية التعليل « لماذا » المرتكزة على الملاحظة بدلا من الاستدلال والقياس ، بل وحتى المسلمات التي منها ينطلق أضحت بدورها موضع تساؤل واستفهام . . .

هذا التطور المنهجي ، والذي تأكدت فاعليته في علوم الطبيعة ، لمست صلاحيته في علوم الإنسان بعد أن تكاملت الطرق الاستقصائية له ، كطرق بحث لاستيعاب عناصر لظواهر مع قدراته الشارحة ، وقد تعددت في علوم الطبيعة بتعدد التخصصات وتنوعها ، في علوم الإنسان تبلورت حول محاور رئيسية ثلاثة كل محور يمثل إتجاهاً أساسياً في الشروح كما أشرنا من قبل في مدخل هذه الدراسة ، ونعني بذلك إتجاه يسجده المنهج التاريخي ، وآخر يمثله المنهج التحليلي ، وثالث يمثله المنهج السوسيولوجي — المنهج التاريخي ينطلق من رصد الوقائع والأحداث أو الأفكار تسجيلا وتسلسلا عند المؤرخ ، لتحدد مدى صحتها عند عالم التاريخ بفضل استجوابه وإستنطاقه لها ، معتمداً للرؤية ومحتكماً للعوامل الاقتصادية والتربوية والدينية والنفسية والديمغرافية والسياسية والبيئية .. ليتجه بها بعد ذلك فيلسوف التاريخ إلى التعليل والحتمية . . .

— بينما المنهج التحليلي تبناه كمقدرة شرح أغلب العلوم الاجتماعية الخاصة وهي التي تعتمد على قواعد أو أنسقة محددة ترتكز عليها

فى التحليل كالعلوم القانونية واللغوية والديمغرافية والاقتصادية . . . ويأتى المنهج السوسيولوجى كشروح شمولية جدلية مادية . أو أو جدلية أمبريقية (واقعية) أر بنيوية وظيفية وقد وضحنا ذلك تفصيلا فى الفصل الأول من هذه اللمحات عن المنهجية وكيفية استئناسها فى الإسلاميات فى الفصل الثانى . . .

وعليه هل يمكن لهذه القدرات المنهجية بدورها خصوصاً المطبقة فى علوم الإنسان (باعتبار أن الإسلام ليس رسالة فى الطبيعة أو الكيمياء أو البيولوجيا وإنما هو أكمل وأسمى من ذلك . هو رسالة شمولية للإنسان ومصيره فى كل زمان ومكان) أن تصبح أرضية للمواجهه فى التحدى الإعجازى للإسلام له أو أو عليه ؟ . . . هذا ما سوف نطرحه الآن منطلقين من التساؤل التالى : هل يمكن للمنهجية المعاصرة وهى التى تتغنى بها الحضارة الغربية وتشكل رأس رمحها فى التصدى بل وتسجد قدرتها الأساسية فكرياً فى هذه الآونة أن تكتشف من خلال مواجهة صارمة لماضى الإسلام وحاضره وتطلعاته المستقبلية قصوراً لم تستطع مسيرة الفلسفة والعقلانية . ولا المسيرة العلمية أن تكتشفاه . وتأتى المسيرة المنهجية فتكتشفه ؟ أم العكس نفس هذه المنهجية وقد وضعت فى حوار نزيه مع الإسلام (كمبادىء لا كبشر) تؤكد لنا صلاحيته فى عصوره الماضية وفى عصرها الحاضر وتقف عاجزة عن تجريح تطلعاته المستقبليه الخالدة ؟ .

ولنبدأ بالماضى من مسيرة الإسلام فى محاولة تقنينية لا نقلية ولا عقلانية صورية - مع اعتزازنا بالنقل والعقل فى مختلف مظاهرهما وصورهما -- وإنما ترتكز ومن البداية على التساؤلات الجدلية مادية أو أمبريقية أو على الشروح المنهجية المعاصرة باعتبارها أحدث ما أخرجه الفكر البشرى . . .

فحينما نكون أمام ظاهرة عملاقة عيشت تاريخياً .وغطت فعلا أعواماً طوالا من المواجهات.وكان لها معاصرون ومشاركون بين متحمسين لها أو معارضين.سنلجأ بالضرورة والالتزام منهجياً لتعدد الملاحظة غير المباشرة (أى التوثيق التاريخى) مستجوبين ومستنطقين للوقائع والأحداث المادية . ونستبعد مؤقتاً الملاحظة المباشرة التى تتطلب أساساً عنصر المعاصرة للظاهرة . وهذا مستحيل فالظاهرة عيشت فى آنها . اللهم إلا ملاحظة آثارها . . .

أما استنطاق الواقع التاريخى واستجوابه فيكون عن طريق من جسدوه آنذاك لا عن طريق انطباعات مكتبية من مبيتات أو من صنع القرن العشرين . . .

وإلا كيف يمكننا أن نرفض استنطاق واستجواب معاصر للنبوة الخالدة ونقبل فى مكانه حكماً عفوياً أو تذوقاً كيدياً.أو موقفاً عشوائياً من إنسان جالس فى مكتب مكيف فى باريس أو لندن أو موسكو أو واشنطن يشعل سيجاره على أنغام الموسيقى معلناً فى تبجح جهول أو اعتباط أعمى بصيرته:لا..هذا لم يحدث. النبوة لا وجود لها !؟؟ . . .

نقول لهم أين المنهجية التى ألزمتمونا بها ياعلماء الغرب المادى ؟ أتمثل هذه البساطة والعفوية بقاس مصير الإنسان وعلاقته بالسماء؟ أم أنكم فى المنهجية كما كان الشأن فى الكتاب.. « **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** » ؟ (١) . . .

باسم المنهجية نواجه ظاهرة النبوة الخالدة بالاحتكام لمن عاشوها وعايشوها، وكيف بدأت وكيف تطورت، وكيف آلت ؟ وهل واجهت من أنكرها فى البداية؟ وكيف غير هذا المنكر موقفه . ليس فقط ليؤمن بها بل ويضحى شهيداً بحياته فى سبيلها . . .

إن الملاحظة المنهجية الصارمة لعصر النبوة الإسلامية الخالدة المبنية على استنطاق الأحداث واستجواب الرقائع تؤكد لنا أن عصر النبوة عرف المتحدى كما عرف المؤمن . وعرف المتقبل كما عرف المفكر . ولكن كل من شاهد نور النبوة الخالدة وإشراقة الإلهى المعجز آمن بها فى النهاية ، اللهم إلا ما ندر ممن فى قلبه مرض ، أو حاجة فى نفس يعقوب ، أو من لديه نعرة أو تعصباً رعصبية قبلية عمياء أو حقداً وحسداً فى أن تكون النبوة له لا غيره ، أو انفاقاً وإرتزاقاً. كما نشاهد فى عصرنا هذا، وفى كل العصور « **من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه** »... (٢) بينما كبار المنكرين النزهاء فى البداية أصبحوا

---

(١) البقرة : ٨٥ . (٢) الحج : ١١ .

كبار المؤمنين الشرفاء فى النهاية بعد أن بهرهم نور النبوة بقرآنه المعجز فآمنوا عن قناعة كمعاصرين بل منهم من استشهد مضحياً بأعز ما لديه وهى حياته فى سبيل الله . (كمجرد مثال على سبيل الذكر لا الحصر : عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وغيرهما الكثير). رضى الله عنهم جميعاً . . .

كيف يمكننا أن نرفض إذن شهادة معاصر عاش الأحداث بقناعة وشارك فيها منكراً أو مؤمناً . ونقبل شهادة مرتزق أو معاند مستكبر فى القرن العشرين . ليس له من رأس مال منهجى إلا مجرد التخمين والظنون والفرضيات الاعتباطية بل والاستدلال الغيبى المادى المزعوم . يتهموننا فى إيماننا بالغيبية ونحن بها نفخر ونعتز . ولكن هم **حينما يلحدون غيبياً** يعتبر هذا ضرباً من الوعى ومرآة للتقدم . إنه التغميض بعينه . لنقارع حجة بحجة وتحت راية المنهجية التى هى من وضعهم . . .

المعاصرون للنبوة الخالدة آمنوا بها بعد أن كان لهم الخيار دون إكراه بين القبول والرفض . دون اعتداء على المؤمنين « **لكم دينكم ولى دين** »(١) ومنهم من اقتنع بها بعد صراع دام . ثم استبسل فى سبيلها . فكيف نتنكر لهذا الواقع التاريخى الملموس بصراعه ومواجهاته ومآليته . ونتقبل أساطير مطبوخة وملفقة فى القرن العشرين من مستلب بأنماط فكرية مفلسة

---

(١) الكافرون : ٦ .

أو من حاقد أو مريض بإلوهية مزيفة لم يلتزم فى تبريرها بأبسط أسس المنهجية التى يتشدق بها . إنه يكفر أتباع الإله الحق ليؤمنوا به هو كإله مزيف مصطنع عوضاً عنه . . .

ثم ماذا ؟ لنفترض أن كل المعاصرين للنبوة خدروا أو نوموا فسلموا بها . بعد أن غابت عنهم حقيقتها التى لم تكتشف إلا بفضل عشاق اللغو فى القرن العشرين من المنكرين باسم المادية . فلننزل إذن إلى جوهر ومضمون هذه الحقيقة ولندعها تتحدث عن نفسها ، ونحتكم موضوعياً إلى محتواها وبمقاييس هذا العصر ومناهجه وقيمه وأسسه الحضارية ، لا بمقاييس عصرها فقط . . .

إن البشرية لديها الآن من المدارس الفكرية والمذاهب الكبرى المنقذة — على حد زعمهم — للإنسانية الكثير : من سان سيمونيه مثالية ، وكونتية وضعية وتطورية . وداروينية وماركسية نشطة ، وبنيوية وظيفية شارحة ، ووجودية مفجرة ليأس الإنسان ومحصنة له فى نفس الوقت . وذرائعية واقعية . . . إلى غير ذلك من الاتجاهات والتيارات المعاصرة . . والإسلام لديه قرآنه الخالد وحكمة النبوة القدوة الرائدة . فلنحتكم ولنقارن فى الحاضر بعد أن احتكمنا إلى الماضى . وتأكدت لنا عفوية التنكر للنبوة . . .

ولكن حينما نطرح الحاضر . نعنى حاضر الإسلام ، كمبادىء لا حاضر المسلمين كبشر مستضعف فى غالبيته مهدور الكرامة ، ومقهور فى أرضه بمباركة الإمبرياليتين وتواطئهما . فلنواجه

الإسلام واضحاً بهذه المدارس والمذاهب الكبرى المعاصرة، رغم مرور أربعة عشر قرناً كفارق زمني بينه وبينها . . .

هل نكتشف في مضمونه ومحتواه قصوراً لا بعد أعوام وإنما بعد كل هذه القرون، أو نعرى فيه عورة لم تستطع المسيرة التاريخية أن تعريها ؟ .

إن المدارس والمذاهب المعاصرة الكبرى نظرت لبنية الإنسان وعلاقاته الأسرية والمجتمعية والطبقية ، بل والأممية ، وحاولت التطبيق العلمي باسم السوسيولوجيا (علم الاجتماع) كما نظرّت الإنسان في أغواره وأعماقه اللاشعورية والشعورية وعلاقته النفسية ببيئته . وزعمت التطبيق العلمي تحت راية السيكولوجيا (علم النفس) وغاصت في نتاجه المادي وغير المادي تراثياً بتقاليده وعاداته وأعرافه . وتبنت التطبيق العلمي باسم الأنثربولوجيا الثقافية والاجتماعية (علم الإنسان) كما حاولت أن تمذهب أيضاً تطلعاته الإنسانية والطبقية والاجتماعية عبر صراع مفتعل ومبيت، لتحد من صراعه الموضوعي الملموس . وتعومه في أطروحات مزيفة متشدقة بما تتمناه وتحققه لنفسها وتنكره على الآخرين من عدالة ومساواة وحرية وتقدم . سواء ليبرالية كانت أم ماركسية . . .

لنرى مقارنين . هل تجاوزت هذه المدارس والمذاهب الإسلام في عطائها ، أم ما زال وسيظل بنزاهته وبساطته متجاوزاً لها ؟ هل في إمكانها وبروح رياضية بعيدة عن التعصب والتزمت

والانفعال والغوغائية اللفظانية و(بالاحتماء خلف مسميات وألفاظ مبتدعة لمداراة العورة والإفلاس الفكرى . بعد اكتشاف القطيعة المريرة فى حضارة الغرب بشقيها الليبرالى والماركسى بين ما يقال وما يفعل) أن تنازل الإسلام وتدحضه فى مبادئه أم أن الإسلام فى إمكانه بصفاء أسسه أن يكشف ما فيها من هزيمة وإنهزام لجوهر الإنسان ؟ . .

لن نقف طويلا عندما يحسب للإسلام من مثل خالدة اعترف بها الخصم قبل المريد فيما يعنى بناء المجتمعات والأمم تحت راية اللقاء فى الله . ونبذ التنافر والتطاحن والحروب،والدعوة إلى الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة،أو المجادلة باتى هى أحسن . والدفع أيضاً بالتى هى أحسن . حتى يتحول العدو إلى ولى حميم . أليس رسول الله (عليه السلام) القائل بالنسبة للحوار مع أهل الكتاب « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم « **وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** » (١) ومن ثم كان الحث على التكامل والمودة والرحمة والتعاون بين بنى البشرية هدفاً وغاية من غايات الإسلام . .

كما لا نتوسع فيما نظرّه الإسلام للفرد وعلاقته بذاته وأغواره، وبأسرته وجاره ومن يحيط به فى شكل بناء ومعطاء ومتوازن ، وإنما نقف أمام الزاعمين لما يحسب عليه ، فماذا يؤخذ على الإسلام ؟

---

(١) العنكبوت : ٤٦ .

أو ماذا يأخذ الإسلام على المذاهب المعاصرة فى حالة نزاهته من القصور والمأخذة ؟ .

إن كان المسلم القدوة كما بناه الإسلام وحدده لم توجه إليه اتهامات ــ فى حد علمنا ــ لأن الإسلام فى تربيته للإنسان يزكى فيه روح التعادل والتفهم والتفاهم مع ذاته أولا ليسهل عليه بعد ذلك التفاهم مع الآخرين . . بل أعطى أهمية كبرى للرضا والقناعة فى داخل الإنسان (فإنسان غير راضى عن نفسه لا يمكن أن يرضى عن أى شىء يحيط به) موضحاً للنفس الأمارة من ناحية والمطمئنة واللوامة والراضية والمرضية من ناحية أخرى ... فبناء الإسلام للأسرة خصوصاً تعدد الزوجات ـ والرجل القوّام المتصرف كانا محل اعتراض وتجريح من دعاة الغش باسم المساواة . ودعاة التحلل باسم التحرر . وكما يقول المثل المتداول « رمتنى بدائها وانسلت » . .

يقولون : تعدد الزوجات وسلطوية الرجل فى الأسرة وقهره للمرأة ؟ ! أما تعدد الزوجات فما دعا الإسلام أبداً المكتفى بزوجة واحـــدة إلى التعدد حباً فى التعدد ؛ بل نهى ضمنياً عنه **« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم »** (١) . . **« فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة »** (٢) . . .

---

(١) النساء : ١٢٩ . (٢) النساء : ٣ .

ولكن حينما نكون أمام نموذج من الرجال لم يعد فى استطاعته الاكتفاء بزوجة واحدة، لظروف قاهرة نفسية أو اجتماعية أو بيولوجية. ونفس الشيء بالنسبة للمرأة فتطلب الطلاق — بمعنى منع حالة على عتبة الشذوذ والانحراف. هل من الأولى أن يمارس الطلاق بالنسبة للطرفين. والتعدد الشرعى للزوجات بكل ما فيه من مسئولية أمام الله والمجتمع سواء فيما يخص الرجل أو المرأة أو الأطفال فى حالة وجودهم، دون تنكر أو هروب « **وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً . أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً** »...(١)وقول الحق سبحانه أيضاً « **وعاشروهن بالمعروف** » (٢)؟أم يلجأ إلى إغراء امرأة لتصبح عشيقته يلهو بها ويتمتع بجسدها بعد استرخاصه وعليها أن تتحمل هى وحدها النتائج والدنس والعار والمزاولة غير المشروعة جنسياً ؟ ثم ما يسهل بعد ذلك بالتعود والاعتياد من إباحة للمزاولة الشائنة وتعميمها والدخول فى مسلسل الانحلال باسم التحرر — كما نشاهد للأسف الآن — ونشر الأمراض الجنسية والتسلى بأعراض البشر كسلع استهلاكية . . . ثم الملل من كل ذلك وفقدان الجنس لطابعه الأساسى . من أنه وسيلة مقدسة للاندماج والاستمرار المشروع للبشرية من خلال حياة كريمة برضاء الله وحماية المجتمع . . .

---

(١) النساء : ٢٠ (٢) النساء : ١٩ .

يلومونا فى تعدد الزوجات وحولهم عشيقاتهم وما خجلوا من أنفسهم ، إنهم يحرمون الفضيلة ويشرعون للرذيلة ويحثون عليها ويتلذذون بها . . ثم يكملون تجريحهم الأعمى بالتفسير الخاطىء « للرجل القوّام » من أن فى ذلك تمييز تعسفى له على المرأة . . إنها قراءة مغرضة ومغلوطة للآية الكريمة « **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم**»...(١) فالقضية مفاضلة ربطت بالإنفاق على الأسرة وعطفت عليها فالرجل قوّام منفق داع ،وليس قوّام متسلط ،وعلاقته مع الزوجة دستورها **المودة والرحمة** . . .

إننا نلاحظ الآن ،وفى هذا القرن ، العديد من النساء الغلاة فى التحرر والمساواة عبر المجتمعات الصناعية قد وقعن فى العزلة ومرارة القطيعة ،وأصبحن يتحسرن على الرجل القوّام الودود الراعى لتشعر المرأة فى كنفه بالحنان والعناية والحماية والمودة والرحمة والرعاية العاطفية ، بعد أن تحولت الأسر إلى **شركات مساهمة مجهولة الهوية** ،العلاقات فيها مبنية **على الحسابات التجارية** ، وقد جفت فيها العواطف . .

فما عرفت المجتمعات فى تاريخها مثل ما تعرفه الآن من

---

(١) النساء : ٣٤ .

إنتصام أسرى ، وتدليس فى المشاعر ، وتلاعب بالعواطف بعد أن اهتزت المعايير . . .

كذلك لا يمكن بحال أن يفهم تعبير «قوّام» على أنه مانع للمرأة من أن تلعب دورها موضوعياً فى المجتمع وتشارك فى تقدمه كعضوة منتجة تعمل فيما أهلت له دون أن يخل هذا بأنوثتها ووقارها ومكانتها كزوجة وكأم وكمدرسة أولى لبناء المجتمع من خلال بنائها للطفل تربوياً ونفسيا فى خطواته المبدئية لمراحل نموه .

وتستمر الأطروحات المغلوطة للأخذ من الإسلام والنيل منه يصدرها من فى قلوبهم مرض أو حقد أو كيد، فيأتى الرق ليلصق فى الإسلام . وكأن الإسلام هو الذى أقره وشرعه فى تاريخ الإنسانية ، وغاب عن الكثير ، جهلا أو تجاهلا ، أن أطروحة «الرق فى الإسلام» مغشوشة بدورها من الأساس

فإذا كان هناك دين أو مذهب فلسفى أو سياسى اجتماعى واجه الرق عملياً ، ودعا إلى الحد منه كظاهرة مستوطنه ومزمنه فى العصور القديمة والوسيطة تجسد عنصراً اقتصادياً يكمن فى استغلال عضل العبد وطاقته فى الإنتاج والعمل مثل الإسلام ، فقد اتخذ من تحرير الرق وسيلة من وسائل التقرب إلى الله ، وطريقاً إليه وكسب عفوه وغفرانه ورضاه . (ولمن يريد التفصيل يراجع دراستنا المنشورة بالفرنسية فى المجلة التاريخية المغربية الصادرة فى تونس فى يناير سنة ١٩٧٧ ـ عدد خاص) . . :

وتتوالى المغالطات تجاه الإسلام ورؤياه الاجتماعية للعلاقات بين الجماعات والطبقات ويتمشدق البعض بوصفه أنه دين كبقية الأديان المرتبطة بالبنية الفوقية للمجتمع ، دون أن يفهم الإسلام ، أو يراجع بعمق الأرضية الفكرية التي يحكم على ضوءها، ليرى أنه من الخطأ تعميم الانتماء للبنية الفوقية على كل الأديان وإقحامها برمتها في تسرع . ودون تروٍ في الأيديولوجيات الاستلابية المتصدرة، كما صنفها لفكر التقدمي الغربي إنطلاقاً من همومه الغربية. وصراعه ضد استغلال البعض للدين . . .

فإن كان من دين دعا إلى **العدالة الاجتماعية** وتجاوز الصراع الطبقي بحلول جذرية لا بمقولات مكتبية لا صدى لها في الواقع الملموس فهو الإسلام . . .

المذاهب الاجتماعية الكبرى المعاصرة تؤكد وجود الصراع الطبقي نتيجة لوجود طبقي مُستغِل لا نتيجة لمجرد الوجود الطبقي في حد ذاته، كانعكاس لوضع ملموس وهو « **كل حسب أهليته وكل أهلية** حسب ما تنتج كما لاحظه أولاسان سيمون كمذهب إجتماعي ثم حوره ماركس من بعد في نصفه الأخير ليصبح « **كل حسب أهليته** وكل أهلية **حسب ما تحتاج**». وها نحن بعد ما يقرب من قرن منذ وفاة كارل ماركس نرى صعوبة تحقيق ما ذهب إليه من مقولات خاصة بتصنيف الأهليات **حسب احتياجها** وإنما حسب **إنتاجها** بما في ذلك المجتمعات المتبنية قولا لهذه المقولات، والتي

عجزت عن تحقيقها فعلا، لما فيها من حث مبطن على التكاسل والتواكل وتحويل المجتمع إلى سوق للعمالة دون إنتاج فى المقابل ، وخلق لطبقات طفيلية تؤمن حقوقاً لها مفتعلة على المجتمع، دون عطاء منتج ، وأدى هذا إلى التراجع ضمنياً أو السكوت المبيت عن هذا المبدأ لدى القائلين به من المذهبين والمتمذهبين . . .

وأما الإسلام ولم يتنكر لكبد الدنيا « **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** » (١) ولم يتجاهل الصراع الطبقى ، بدفع الناس بعضهم لبعض كحقيقة ملموسة ونشطة فى الوجود ، وما يترتب عليه من متغيرات وثورات وحروب بكل آثارها من تعويضات وأسر وسبايا . وإهدار لوضع المتسلط الظالم بعد هزيمته . حتى يكون عظة لكل متطلع إلى الظلم والطغيان . . . فحينما صنف **كل حسب أهليته** بعد أن جعلنا خلائف فى الأرض ، ورفع البعض فوق البعض درجات **لا للاستغلال والظلم** ، وإنما للاختبار والبلاء فيما أتانا من درجات وأهلية وقدرة، وكيف نتصرف فيها بما يرضى الله ويحقق العدل فى المجتمع ، حدد لنا بذلك أسس تجاوز الصراع إلى السلام لا تفجيره بالحروب والدمار . يقول الحق سبحانه لبيان هذه الأسس « **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم** »(٢) وقوله « **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين**

---

(١) البلد : ٤ . (٢) الأنعام : ١٦٥ .

والأقربين »(١)وقوله « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا** ، (نصيبك فقط وليس الاستحواز على أنصبة الآخرين إستغلالا وظلماً) **وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد فى الأرض، إن الله لا يحب المفسدين»(٢)**وقوله« **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** » (٣)وقوله « **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً** » (٤) . . . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الخالدة التى تشكل دستوراً لمعايير التصرف السليم فى الأهلية والقدرة لما فيه صالح الجماعة والمجتمع وتحقيق ملموس للعدالة والمساواة والحرية . .

إن هذه الحجج دامغة تقدمها ليتأملها أدعياء اللغو والخوض دون معان أو تدبر فى الإسلام، ممن امتطوا الموجات الزيف أو تاجروا فى الألفاظ والمسميات . . .

لقد صدرنا فى عرضنا هذا ، ما ظن البعض أنه مآخذ يمكن أن تؤخذ على الإسلام إجتماعياً. وأظهرنا كيف أن هذه المآخذ لا وجود لها إلا فى عقول مبتدعيها . وأن الإسلام صامد فى تحديه الاجتماعى المعجز فى بناء الفرد والأسرة والجماعة إلى جانب الأسس الخالدة التى وضعها لضمان استمرارية المجتمعات البشرية والأمم ، تحت شعار التعارف والتآلف والتكامل الكونى والسلام . .

---

(١) النساء : ١٣٥ .
(٢) القصص : ٧٧ .
(٣) النساء : ٥٨ .
(٤) الفرقان : ٧٦ .

وبقى علينا فى النهاية وباسم الحوار والتحدى الإعجازى للإسلام منهجياً فى هذا العصر. أن نتصدى لما ظن بعض المهرجين باسم علمية متكلفة ومصطنعة واهية إلا علمية رصينة واعية أن فى استطاعتهم اكتشافه فى الإسلام كأساطير وخرافات . وأنهم بذلك سوف يوجهون الضربة القاضية إليه وينالوا من ديننا ما ابتغوه . بعد أن نالوا من جماهير المسلمين . واستضعفوهم ونهبوا خيراتهم . لم يبق لهم إلا أن يسلبوهم عقولهم وعقيدتهم . ونعنى بذلك ما ورد فى الإسلام : قرآناً وسنة بشأن الوحى والنبوة، وجلال الله . والغيبيات . وأسرار الكون وخفاياه . . .

وأما الوحى والنبوة فلا يسئل بشأنهما إنسان متعلق بالدنيا وزينتها . وقلبه غارق فى متاعها . وجسده متهالك وهالك فى منكرها ، أو من أدار ظهره لتعاليم السماء أساساً . هذه الفصائل من البشر قد اختارت من البداية إلى النهاية طريقاً مغايراً ومعارضاً . ربما من الأولى أن تستفتى وتسئل عن متاع الدنيا وملذاتها، وقد خبرتها وعاشت من أجلها . ولم يبق لها إلا أن تحمل ذلك معها إلى قبرها . . .

ومع هذا . فلهذا المتعلق بغرور الدنيا الحق فى أن يجادل ويحاجج ، وعلينا أن نتصدى له بالرد المقنع مستعينين بهدى الله . وما أهل به عقولنا من معرفة ويقين . . .

النبى أو الرسول إنسان بشر ، إصطفاه الله واختاره بناء على أهلية تؤكد صحة . وصدق وصواب . وسلامة هذا الاختيار .

اختيار ويجعل النبي أو الرسول جدير بهذا التشريف الإلهي الخالد ، ومن ثم نستبعد من البداية أي مجادلة تسعى للتغميض بصدد النبوة ، متخذة من السيرة الذاتية لنبي أو رسول بشر مجالا للتشهير المغرض والتفسير المغلوط لوقائع حياته إفتراء وكيداً . ولو أن الرسول أو النبي سلك غير ما يسلكه البشر لاتهموه بالألوهية الأسطورية . . . يقول الحق سبحانه ــ وهو فصل الخطاب فى هذا الموضوع ــ مبيناً لإمكانات النبوة وحدودها « **قل لا أقول لكم عندى خزائن الله** » . . الآية (١) كما يقول سبحانه « **قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون** » (٢) . . .

وهكذا تبدو واضحة الخصائص البشرية للنبوة والمانعة من كل مجازفة تغميضية . . .

وعن الوحى وصدقه نقول هو مرتبط بصدق الموحى إليه واصطفائه ، وخير من يسئل عنه ــ كما قلنا فى البداية ــ ويستشهد به من عاصره ، ومن سار فى طريقه بعد أن كان منكراً له، فهو أدرى وأعلم إن لم يك أقرب إلى الحقيقة بمعاصرته لها . أما الذى تبنى طريق المجازفة والتهور والعناد دون معاصرة أو مشاهدة فهو قد افتعل لنفسه طريقاً مغشوشاً لا علاقة له بالوحى والنبوة . . .

---

(١) الأنعام : ٥٠ (٢) الأعراف : ١٨٨

ومن ثم كان أولياء الله أكثر الناس قرباً لأنبيائه والأتقياء والصالحون . فهم من نفس الطريق، طريق حب الله، يقول الحق سبحانه « **والذين آمنوا أشد حباً لله** » ( ) تقربوا إلى الله فاقترب نور السماء من قلوبهم وأنارها، وأما الذين أداروا ظهورهم. فقد كان طبيعياً أن لا يشعروا بشيء بعد أن انطفأ النور في قلوبهم، وعمّها ظلمات الضلال . . .

يقول المعاند المتبجح أو الظمآن المتشكك المتعلق بالدنيا فألهته عن خالقه : هل الوحي ممكن؟ وهل النبوة ممكنة ؟ ؟ مع أنه غير قادر على أن يركز على الحوار مع الله خلال صلاة قد لا تدوم أكثر من دقائق معدودات فهو يظن أنه واقف بين يدي الله وفي حوار خاشع معه ، غير أنه في الحقيقة وبكل تفكيره منصب في صلاته على تذكر مشاغله الدنيوية وما يجنيه ويومه. وفي كل أيامه من متاع زائل . . . بينما النبي أو الرسول حاور السماء سنوات طوال في غاره أو خلوته لا يمل ولا يتعب ولا يغفو. بل يطلب وبكل فؤاده المعبأ، وقلبه الواعي ، وبصيرته المركزة المزيد من نور السماء . . كيف يرتقي إليه ، ومن باب أولى كيف يرتقي إلى التعرف عليه والاعتراف به، هذا الغارق حتى رأسه في شهواته الدنيوية ؟ وقد ملأت عليه كل مشاعره وهبا ومن أجلها يعيش ، ما أقام صلاة ، ولا تذكر خلقه إلا لحاجة في نفسه

---

(١) البقرة : ١٦٥

يقضيها ماكراً بربه ، كيف يحق له. وهو فى هذه الحالة عن علم الاختصاص أن يحكم أو يستغنى فى الوحى والنبوة ؟

يُطلب من رجل القانون أن يكون له اختصاص وتأهيل فى القانون قبل أن يفتى فيه . ومن رجل الطب الاختصاص فى الطب حتى يمارسه ، ومن رجل الهندسة . . . ومن كل التخصصات الاختصاص والتأهيل قبل الإفتاء .

وأما النبوة فيستفتى فيها ويفتى فيها من يشاء « أليس هذا من باب الاستهتار والسخرية بالعقل والعلم والمنهج خصوصا ممن زعموا الاحتماء بهم ضد تغميض الأساطير وتسلط الخرافات . . . » ؟

ميدان النبوة والوحى ميدان له قداسته وسريته . وعلى الغارقين فى ملاذ الدنيا أن يتلهوا بها ، ذلك هدفهم ، ومبلغهم من العلم . وليتركوا — على الأقل — للمؤمنين بنبوة السماء . الشاعرين بانعكاس نورها فى قلوبهم حق الإعراض عنهم وعن دعوتهم . مصداقاً لقول الحق سبحانه « **فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم** » (١) . ثم ندعهم يقولون لنا ماذا أعطتهم وماذا تعطيهم دنياهم التى عبدوها حينما تبلغ الروح الحلقوم ، وحينما تأتى اللحظات الأخيرة للرحيل عنها . وهم بملذاتها فى غفلة لاهون. فتوقظهم طرقات الموت ؟ كما جاء فى حديث رواه أحمد « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » وكما قال

---

(١) النجم : ٢٩ ، ٣٠ .

عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): « لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل ثم جاءه الموت لكان بمنزلة من رأى فى منامه ما يسره ثم استيقظ فإذا ليس فى يده شيء » . . .

هم يقولون مغرّرين أنفسهم خادعين لها : « **ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** »(١) وكأنهم شهدوا خلق أنفسهم . يقول الحق سبحانه فى التحدى لهؤلاء «**ما أشهدتهم خلق السمرات والأرض ولا خلق أنفسهم** »(٢) من أين جاءهم إذن التأكيد والتأكد ؟ ؟ أو كما قال الحق سبحانه « **أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون** » (٣) أو أنهم خلقوا شيئاً يدعم محاججتهم يقول الحق سبحانه « **أرونى ماذا خلقوا من الأرض** » (٤) . . . أو حتى يجيبون على بقيه التساؤل أو يكملوه . لماذا يموتون ولماذا يحيون ؟ ؟ هل لمجرد العبث ؟ ولكن يجيب الحق سبحانه « **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون**»(٥)؟ وتاتى آية الرحمة التى تملأ قلب المؤمن رضاً وسلواناً أمام عفو الله ، فيقول الحق سبحانه . « **يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً** » (٦). . .

هذا الإنسان الضعيف الذى أراد له الله التخفيف ، يتحدى خالقه ، زاعماً المعرفة فى كل شيء . وكأنه أحاط بكل أسرار

---

(١) الجاثية : ٢٤ (٢) الكهف : ٥١ .
(٣) الطور : ٣٥ . (٤) فاطر : ٤٠ .
(٥) المؤمنون . ١١٥ (٦) النساء : ٢٨ .

الكون ، ووصل به غلوه إلى أن يتنكر لمبدع الكون. وما كلف نفسه مشقة النظر وإعادة النظر بعمق فيما صنعه الخالق الذى حثه على ذلك « **ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين** (أيها المتحدى الخاسىء) **ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير** » (١). . .

يحتمى المنكر خلف بعض المسميات التى افتعلتها إفتراء حينما تعجز به قدرته بدلا من أن يتواضع ويبحث ويتدبر وينحنى إجلالا لآيات الله . يقول الحق سبحانه « **وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون** » (٢) .

لم نندهش حينما وجدنا جهابذة العلم وعمالقته النزهاء يلتقون مع أبسط البسطاء أمام غموض الكون) مجرد مثال هربرت سبنسر المعروف بنظريته فى التطور) ويعترفون مؤمنين أم مكرهين بجلاله . بينما عصابات المتطفلين على كل معرفة من الانتهازيين والآكلين على كل الموائد . والعارين عن كل أصالة أو عمق ، وليس لهم من رأس مال إلا الظن والظنون والعبادة الوثنية للمسميات . تتشدق بالمغالطات ورفع رايات الزيف والبهتان تحت ستار العلمية الملفقة . لا القادرة الرصينة كما يقول الحق سبحانه « **قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا . إن تتبعون إلا الظن** »(٣) وفى آية أخرى

---

(١) الملك : ٣ ، ٤ .
(٢) الذاريات : ٢٠ ، ٢١
(٣) الأنعام : ١٤٨ .

« ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله »(١) . . .

إنهم يسخرون من تعدد الخطاب فى القرآن الذى يتحدث عن الأنعام والإبل والبراغيث والنمل محاوراً لأول من عاصره من البسطاء من خلال حياتهم الملموسة ، كما يتحدث عن الإشكاليات الكونية الكبرى وبقمة التحدى لعقول المعاصرين فى القرن العشرين ، وفى كل القرون التالية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . . كل هذا فى خطاب متجانس يجمع بين روعة البساطة . وقدره الإقناع ، إننا نقول لهؤلاء الساخرين : تعدد الخطاب فى القرآن هو ضرب من أسمى ضروب إعجازه . فقد استطاع أن يخاطب كل عقل قدر طاقته مصداقاً للحديث « نحن معشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم » .

إنهم يتنكرون للوحى والنبوة -- وقد أشرنا إلى ذلك وسلفاً ودحضنا إنكارهم — كما ينكرون الغيبيات : البعث والحشر ويوم القيامة والملائكة والجن ، والشياطين ، وخفايا الكون وأسراره . . وكأنهم قطعوا هذا الكون طولا وعرضاً ، وتغلبوا على الموت وأمدوا فى أعمارهم بلا حدود . بينما فى الحقيقة لو أن أحدهم تزحلقت قدماه على الأرض ، لا فى الكون ، لفقد توازنه . وما فكروا أبداً فى حافظ توازن الكون بأرضه ونجومه وكواكبه .

---

(١) يوسف : ٤٠ .

وأفلاكه ومجراته التى تغمر بملايينها السموات . . . لو أنهم تفكروا فى خلق السموات والأرض . بل ولو فى خلق أنفسهم لتهلوا فى أحكامهم العفوية الاعتباطية . ومواقفهم العشوائية ، وخففوا على أنفسهم . فيخفف الله عليهم **فلن يقدروه حق قدره**. يقول الحق سبحانه « **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه** » (١) .

وروى عن ابن عباس ، أن قوماً تفكروا فى الله عز وجل فقال النبى (عليه السلام): « تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله فانكم لن تقدروا قدره ! . . .

* * *

والخلاصة : إن من يتسرع فى حكمه المنكر لجلال الله سبحانه وتعالى . ولأنبيائه ورسله وما جاءوا به . معتمداً فى ذلك على معرفة نسبية لديه . ما هو إلا جاهل جهول . أو معاند مكابر مستكبر . وما التحدى الإعجازى للإسلام ماضياً وحاضراً ومستقبلا وباسم المنهجية إلا رؤية موضوعية يدافع عنها المؤمن المسلم بوعى ورصانة . دون تهيب أو وجل وكله ثقة فيما لديه . . .

فبعد مواكب الدفاع عن الإسلام وصلاحيته لإنقاذ البشرية باسم النص والنقل والشرع أولا ، ثم باسم الدراية والعقل ومحاورة الفلسفة والعلم بعد ذلك . ثم حالياً باسم المنهجية . ماذا تبقى للمعاندين والمكابرين والمستكبرين ؟ ؟ .

---

(١) الزمر : ٦٧ .

إن كانوا معاندين جهلاء، عليهم بمزيد من العلم ، وإن كانوا مكابرين تطرفاً ، فعليهم بالتراجع إلى الحق والارتداد إلى مواقع الصواب، وليواجهونا بالحوار الهادىء البعيد عن الانفعال والتشنج والاحتماء بالمسميات المفتعلة واللفظانية التافهة ، وسوف تتحول مكابرتهم ، بإذن الله ، إلى عرفان بالحق واعتراف به . وفى ذلك منجاة لعقولهم الضالة المستلبة بالدنيا ، ونجاة لهم من همزم الآخرة . . . وإن كانوا مستكبرين ترفعاً عليهم أن ينظروا فى الجبال الصماء المحيطة بهم، إنها أكثر رسوخاً ودواماً منها، أو يتأملوا ذباب الأرض وأبسط مخلوقات الله ، فيفرغوا إستكبارهم وتحديهم فى صنعتها ، أو أمام عجزهم ينحنوا إجلالا لله، أو بدلا من تبجحهم بموت الإله — كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً — فليعيدوا الحياة إلى أجسادهم بعد موتها ليريحوا أو يستريحوا ؟ .

إننا بعرضنا المتواضع هذا **كلمحات عن منهجية الحوار والتحدى الإعجازى للإسلام فى هذا العصر** إنما نسير فى طريق خالدة ثابتة، خطها الرسل والأنبياء بنور السماء، وسار فيها التابعون أهل السنة من السلف الصالح معبدين لها ليعبرها من بعدهم جيل الخلف ، من حملة مشاعل الشرع والحكمة ، الملتزمين بنص القرآن والحديث الثابت الصحيح متناً وسنداً . القائلين « سبحان من لا يقع فى ملكه إلا ما شاء» المركزين على تفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنة

«لصاحب الرسالة وصاحب البيان »ثم المأثور من لدن الصحابة . مع قبول التأويل النسبي مع عدم المغالاة فيه ، والتصدى لكل من خرج على طريق الحق ، ومحاورة دعاة التطرف فى التأويل ممن غالوا فى صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح بدلالة ظاهرة إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك.أو دعاة الاجتهاد تحت راية التمثيل والتشبيه والمجاز كجانب من المعتزلة والجهمية أو الجبرية ومن ذهب مذهبهم . . .كل هذا فى إطار متكامل لهذا الخلف الصالح تحت شعار التوفيق بين النقل والعقل كما رفعه : الأشاعرة والماتريدية وغيرهم ومن نحا نحوهم، من الداعين إلى التفتح على الإسلام والارتقاء إلى معطياته الرائدة وكشف كنوزه الخالدة . . .

* * *

وها نحن اليوم وفى نهاية عرضنا عن « منهجية الحوار المتحدى » نذكر بهذه المواجهات البناءة التى عرّفت بالمسار الإعجازى للإسلام عبر العصور وحافظت عليه ، وفاء منا لرجال « **صدقوا ما عاهدوا الله عليه** »(١) مجددين لهم التعهد من أن طريق السلف الصالح والخلف الواعى المدقق ، وحتى دعاة الفلسفة والعقلانية والمنطق والعلم ممن قالوا : « سبحان من ينزه عن الفحشاء » والتزموا برايه الله . . هى الطريق التى عليها سائرون ، بعد أن منّ الله بها علينا « **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة**»(٢).

---

(١) الأحزاب : ٢٣ .

(٢) آل عمران : ١٦٤ .

obeikandi.com

وقفين بوعى . وحكمة . وتبصر . وقفة رجل واحد أمام معاند أو مكابر أو مستكبر . كما أكدنا ذلك فى المجموعة الأولى من **تأملاتنا الإسلامية** وكررناه فى المجموعة الثانية **من نظراتنا الإسلامية**،ومن جديد نرددها الآن فى ختام هذه المجموعة الثالثة عن **منهجية التحدى** . وبكل اعتزاز وثقة.وبصوت خاشع لله وفى كل صلاة وفى كل حج . وبعد مسيرة قرون من الإعجاز « لبيك اللهم لبيك . لا شريك لك لبيك..خمسةعشر قرناً والإسلام ها هو ذا يتحدى يا خاتم الأنبياء».

* * *

obeikandl.com